المدينة المقارنة والبحث والميزانية

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

عرفني صديق لي وأنا في نيويورك في سنة ١٩٢٤ برجل أميركي ، فقال « إنه ممن تخرجوا في مدرسة اللاهوت في شيكاغو » وخشي أن يثير هذا التعريف في نفسي شعوراً بأن صاحبه من أهل النظر الضيق والمجال المحدود ، شأن أكثر الذين يقتصرون في دروسهم الروحية على وجهة واحدة ، فاستدرك بقوله « ولكنه تعلم أن يشرح الدين على مائدة العلم بالنزاهة كما يشرح علماء الحيوان الأجسام توصلا إلى معرفة سرها ، ولكي يستخرجوا بالمقارنة فيما بينها الدساتير الحيوية التي تحكم عليها » فكأنه بهذا التعريف الودي الشخصي قد عرف صاحبه بأنه ممن درسوا الدين المتقابل ، وأن هذا العلم هو درس الأديان درساً بالمقارنة وتحليلها تحليلا علمياً نزيهاً لمعرفة سرها واستخراج الدساتير الاجتماعية التي تسير بمقتضاها .

ويعد هذا العلم من أحدث العلوم ، ولربما كان للاستكشافات الأثرية الحديثة في وادي النيل وبين النهرين وسورية ، ولاسيما أوراق البردى وطابق الخط المسماري وما فيها من قصص تناقلتها الأمم بعضها عن بعض ـ القدح المعلى في التشجيع على هذا العلم .

وعندي أن علماء علم الحيوان هم أعرف الناس بقيمة المقابلة والمقارنة في الابحاث العلمية ، لأن كثيراً من الأعضاء الأثرية في المخلوقات مثلا ، لا يفهم حق الفهم إلا بالمقارنة ، خذ على ذلك مثلا : الزائدة الدودية في الانسان ـ وهي الأعور عند عامة المصريين ـ فأن هذا العضو أثرى في الانسان لا تعرف له وظيفة خاصة إلا ما ذهب اليه بعض الاخصائيين من إفراز داخلي يفرزه ، وقد قطع من أجسام الملايين من الناس ممن أصيبوا بالتهابه من غير أن يحدث فقده فيهم أثراً ، وهو كناية عن زائدة دودية الشكل لا يتجاوز طولها الأصبع ، وأما في بعض الحيوانات التي تعيش على الحشيش كالحصان مثلا ، فأن لهذا العضو وظيفة مهمة في الهضم ، وقد دعي في الانسان عضواً أثرياً لتضاؤله وانحدار وظيفته ، وهكذا عرفنا بالمقارنة التشريحية معنى الزائدة الدودية في الانسان .

وقد تؤدي المقابلة في درس الأديان إلى إظهار شعائر أثرية انطوت وظيفتها في بطون الأيام وغابت حكمتها في تطور التاريخ ، أو قد نجد هذه الشعائر نفسها مطبقة في مجتمع آخر

غير مجتمعنا تطبيقاً عملياً يعود بالفائدة على مصلحة الأفراد ، أو قد نجد ميلا عاماً في الأديان نحو عقيدة معينة تبيح لنا أن نصوغها دستوراً شاملا ، كقولنا إن جميع الأديان التاريخية لا ترى الموت نهاية وجود الفرد ، بل هناك حياة أو شبه حياة بعده . ومع أن الدين في بابل وآشور وعند الاسرائيليين ، هو رابطة بين الجماعة وربها أو أربابها أكثر منه رابطة بين الفرد وإلهه ، ومع أن البحث عندهم في الحياة الآتية كان ممنوعاً تقريباً ، إلا أن وجود الانسان لم ينقطع في نظرهم بالموت ، بل يستمر بعده ولكن بصورة خيالية مبهمة .

ونرى القبائل الأرية التي شنت غاراتها على الشرق في الأعصر السحيقة قد اهتدت الى عقيدة بالآخرة قبل أن تنقسم الى فريقين : فريق الذين اكتسحوا الهند وفريق الذين اكتسحوا بلاد ايران ، وكانت هذه العقيدة قائمة على الجزاء الذي سيلاقيه المرء بعد الموت إن بالخير او بالشر ، إلا أن هذا الفريق الفارسي أفاض في تصور الحياة الاخرى وفصلها تفصيلا دقيقاً فذكر البعث من القبور والفتح والفردوس للفرس وجهنم لكل خلق سواهم . فمن أشراط الساعة عند (زردشت) نبي الفرس أن الحية وهي رمز (اهريمان) او « إله الظلمة » تفلت من مكمنها لتدمير جميع ما بنته يد (اهورامازدا) أو « إله النور » من الاعمال الصالحة ، لكن « مهديا » او « مخلصا » من نسل (زردشت) يظهر في الوجود في نهاية السنين الالف الاخيرة لانقاذ البشر فيتم على يديه يوم الحشر فتنتشر أرواح الموتى وتعود الى اجسامها قادمة من مساكنها في بيوت التغريد أو جحيم البكاء ، وتجتمع الأسر بعضها مع بعض مرة ثانية للقاء العذاب النهائي الذي يطهرها من الأرجاس ، لأن ناراً تأكل الاخضر واليابس يستعر لهيبها حتى إن الجبال تذوب من شدتها فيعوم البشر في حمم من المعادن المصهورة ثلاثة ايام متواليات . اما الصالحون من العباد فيمرون في هذه الحمم كأنهم في مغطس من اللبن ، وأما الاشرار فيطهرون من أدرانهم ، والحية وأعوانها تلتهمهم النيران .

وفي الاصحاح العشرين من سفر « الرؤيا » في الانجيل ذكر السنين الألف على طريقة (زردشت) هذه ، وذكر الحية وإفلاتها من الهوة السحيقة التي ألقيت فيها لتضل الناس ولكن مصيرها كمصير تلك الحية التي سبقتها بنحو الف سنة نار حامية تشوى جلدها وتحرق عظامها .

وذكر الاستاذ (كارنبتر) في مقدمة كتابه « الدين المتقابل » أنه يوجد في قوس المذبح في بيعة (سوث لى) على بعد اميال الى الغرب من مدينة (اكسفورد) في بلاد الانكليز صورة القيامة والبعث على النمط المعروف في صناعة القرون الوسطى ، وعلى الجدار الجنوبي الملاصق صورة ميكائيل يحمل بيمينه ميزاناً في كفته الواحدة صورة الروح في الصلاة وبجانبها العذراء تحمل سبحة ، وفي الكفة الاخرى شيطان برأس ثور ينفخ في بوق ، وترتفع هذه الكفة ارتفاعاً مضطرداً ، وإن كان شيطان آخر قد تسلق الى قضيب الميزان من فوق ليثقلها

و يدفعها إلى أسفل، وشيطان ثالث من باب جهنم من تحت يسعى لجذبها الى الهاوية . و يوجد على مدخل كنيسة « نوتردام » فى باريز ما يشبه هذه الصورة .

وإذا فرد القارىء صحيفة من صحف البردى مأخوذة من قبر مصرى من قبور الطائفة الثامنة عشرة قبل ايام موسى وجد فيها ما يشبه ذلك المنظر بعض الشبه . فهناك (اوزيريس) الحكم العدل « الهة الحياة وملك الازل » جالس فى ردهة « إلهتى الصدق » و يؤتى بالروح الى هذه الردهة للحساب فيقرر لها مصيرها إن للسعادة او للشقاء ، فتقف امام اثنين واربعين مقدراً أو مخمناً وتنادى ببراءتها من وصمة الذنوب فتقول « لست شريرة ، لست لصة ، لست قاتلة ، لست شحيحة ، لست كاذبة ، لست محتكرة للطعام ، لست سالبة ، لست فاجرة ، لست ممن يسكب الدمع من أعين الناس .. » ثم تساق (وربما أمسكها من جانبيها إلهتا الصدق المذكورتان) الى الدينونة والحساب . فهناك قضيب الميزان قائم على عمود و يحرسه قرد برأس كلب هو رمز تحوط « رب الموازين » . ولتحوط هذا فى الاساطير المتقدمة وظائف عديدة بحيث يرتقى شأنه حتى يصير عنوانا للادراك العالى . ووظيفته هنا انه كاتم سر أوزيريس ، وذلك باعتباره موقتاً ومخترعاً للعدد ، فيوضع فى كفة الميزان الواحدة قلب الميت وهو عضو الوجدان وفى الكفة الاخرى عيار او ثقل مربع ، وربما وضعت ريشة نعامة في بعض الاحيان كناية عن الصدق والاستقامة . أما تحوط فيقف بجانب الميزان و بيده سجل يسجل فيه النتيجة اذ تمر الروح لتنال جزاءها العظيم .

قال الاستاذ كارنيتر « إن المناظر والاشخاص مختلفة لكن الفكرة الاساسية المتعلقة بيوم الحساب واحدة وتجرى على نمط واحد . فهل هذا اتفاق عرضي فى الاستعارة والمجاز يا ترى ؟ » وتشير صورة الميزان بطبيعة الحال الى تقدير القيمة ووزن القدر ، وهذا صاحب الزبور قد نادى من لوعة الاسى « لاشك ان الناس من أهل الدرجات الوطيئة هم باطل وأن الناس من الدرجات الرفيعة هم كذب ، وفى الموازين هم جميعاً أخف من الباطل »

وجاء في الكتاب المقدس فى سفر دانيال أن اليد المحجبة كتبت على جدار قصر بلشزار كلمة (ثقل) العجيبة التى حوت الجملة المريعة « إنك وضعت في الميزان فوجدت ناقصاً » .

وكان الحساب بالميزان للخيال الهندى القديم قبل بوذا (يعنى قبل المسيح بخمسمائة عام) جزءاً من منظر العالم الثانى . وفى تعاليم الفرس الاقدمين أن « رشنو » ملك العدل ترأس أمام الصديق الناصع « مثرا » الشفيع على وزن الارواح فوق جسر المصير المحتوم حيث تمر هذه الارواح إما للجنة و إما للنار .

(البقية على الصفحة رقم ٩٣٦)